إنتهى الحفل وبقي صدى تصفيق الجمهور يتردّد طويلاً في أرجاء مسرح قصر المؤتمرات في ضبيه الذي استضاف الأسبوع الماضي الفنانة غادة شبير لتقف على خشبته بعدما جالت في مسارح عربية وعالمية عدّة. أمس كان موعد جديد، حيث وقفت المطربة اللبنانية في كنيسة مار مارون في الجميزة، ضمن مهرجان "بيروت ترنّم"، لتقدّم أمسية ميلادية خاصّة وتستنهض مرّة جديدة الألوهة النائمة في أقبية الموسيقى البعيدة.

سماع صوت غادة شبير يكاد يشكّل رحلةً بالأبعاد الثلاثة. هي رحلة عبر الأثير إلى حنجرة تناجي الأفق، ورحلة عبر التاريخ إلى أزمنة موسيقية من التراث القديم ورحلة عبر الجغرافيا إلى خوارط منسية ومدن قديمة نكاد نراها تُشيّد أمامنا من جديد وتلفظ أنفاسها في حنجرتها وفي آذاننا في آن.

في حفلها الأخير في ضبيّة، اختارت شبير أن تقدّم برنامجاً متنوّعاً بين الأغنيات الخاصة مثل: «لي حبيب» و«شقيق الروح»، وبين أغنيات جديدة بعضها من ألحانها وكلماتها والبعض الآخر من كلمات جوزيان صليبا ونديم محسن وألحانهما. إضافة إلى أغنيات من التراث التونسي وروائع من الموشّحات مثل: «أشرق يا طلعة البدر» وأعمال شهيرة من المكتبة الموسيقية العربية مثل «حوّل يا غنّام» لوديع الصافي و«سكن الليل» لمحمد عبد الوهاب.

شهور من التحضير وأمسية واحدة

أمّا أمس، وضمن مهرجان «بيروت ترنّم» فكان موعد مع كنوز موسيقية مستوحاة من النصوص المارونية والسريانية القديمة التي تطلّبت من شبير نحو ٧ أشهر من الأبحاث والتحضير لتقدّم ألحاناً جديدة وغير مؤدّاة سابقاً من هذا الإرث الموسيقي العريق.

في حديثها لـ«الجمهورية» تقول أستاذة الغناء الشرقي والعلوم الموسيقية ومديرة الفرقة العربية في جامعة الروح القدس: «هذه المرّة الحادية عشرة التي أشارك فيها في مهرجان «بيروت ترنّم» وفي كلّ مرّة أقوم بأبحاث عن موضوع معيّن مثل «الميلاد لدى الموارنة» أو لدى الأورثوذكس، وأعمل على الموضوع لأضع نوتاته من أجل تقديمه في المهرجان. وهذه السنة أخذت ألحاناً مارونية معروفة وغير معروفة وخلطت فيما بينها لأقدّم عملاً كاملاً على مدى أكثر من ساعة ونصف من الوقت يتسنّى للجمهور خلاله الاستماع إلى أجمل الألحان الجديدة والقديمة».

عطش للأصالة

أمّا عن حفلها في قصر المؤتمرات، فتقول: «عادةً ما أقدّم أغنيات كلاسيكية وهذه المرّة الأولى التي أقدّم فيها أعمالاً موزّعة بطريقة حديثة وجديدة. والناس أحبّوا هذا المزيج بين المنحى الشرقي على مستوى الغناء والنمط الكلاسيكي على صعيد العزف، ولكنّني في المقابل تركت مساحة للأغنيات الطربية التي يتعطّش إليها الجمهور ويشتاق سماعها».

وتعلن: «في فترة الأعياد، سأشارك في

حفل ضخم في مدرسة «المركزية» لمناسبة ٢٥ عاماً على تأسيسها. ثم في احتفال في منطقة الشمال في ٢٦ كانون الأوّل قبل أن أسافر إلى ألمانيا لتقديم حفلين لمناسبة الأعياد»، كاشفةً انها بصدد تقديم أغنية جديدة من ألحان شربل روحانا وكلمات الشاعر جرمانوس جرمانوس.

تؤكّد شبير أنّ «الجمهور يتعطّش دوماً للأصالة، وهناك عشّاق للموسيقى الروحية وناس تقدّر الجمال والأصالة اللذين يكمنان فيها، ولكن لا شك

> تستنهض مرّة جديدة الألوهة النائمة في أقبية الموسيقى البعيدة

انّ البحث في النصوص القديمة شاق ويستغرق وقتاً وجهداً لا سيّما في غياب التنويط وأحياناً المراجع المطلوبة، ولكن لا يمكن الاستسهال أو تقديم التراث الغربي فقط في الحفلات الميلادية. أرفض تقديم تراث غيري. عندما يبدأ الغرب بتقديم تراثنا على مسارحه، عندها يمكن أن أفعل المِثل، فتراثنا عريق وهو الذي أوجدَ الأوزان والمقامات العربية ووزن الكلمة العربية التي نتغنّى بها اليوم. وهو الذي أوجد الكثير من أشكال الغناء الحالية. وأنا مصرّة على مواصلة البحوث فيه، فهنا مجهودي وجدارتي لأنّ صوتي بحد ذاته نعمة موجودة لا فضل لي فيها، أمّا أبحاثي المعمّقة في الموسيقى والتراث فهي جهد أعتزّ بالقيام به والمثابرة عليه».

والصحافة التي تكتب عن هذه الاعمال من دون أن نجد أحياناً من يعارضها. ونحن نخسر هويتنا رويداً رويداً. لذلك لا بدّ أن يكون هناك مساحة ولو مرّة في الأسبوع من أجل تقديم الثقافة للمشاهد والمستمع والقارىء، ولو كنت أملك الموارد والقدرة فإنّ أوّل ما سأفعله هو تأسيس فرقة عربية يتقاضى فيها العازفون أجوراً فلا يضطرون إلى العمل في مجالات أخرى بدلاً من الاحتراف والتفرّغ للموسيقى».

فيروز المواسم كلّها

في المقابل ترى شبير انه «أحياناً يتم جرّ الجمهو إلى أماكن هو لا يريدها، ولكن عندما نقدّم له فناً جميلاً نلاحظ الفرق ونلمس التجاوب والتفاعل الكبيرين. الجميل يبقى جميلاً مهما تبدّلت الأزمنة وتطوّرت الحياة. هل يمكن أن يصبح صوت فيروز غير جميل مثلاً؟ هل يمكن ألا تكون رفيقة صباحاتنا ومشاعرنا وأوقاتنا؟ فيروز هي صوت لبنان، هي صوت وطن، ومثلما هناك وطن وأرز وتذكرة هوية نتمسّك بها كذلك هناك فيروز واحدة ثابتة مثل الهوية ومثل الأرزة، هي موسم من مواسم لبنان أو لعلّها المواسم كلّها. لا يمكنني أن أصحو من دون أن أستمع إليها، ولا أستطيع أن اتخيّل كيف يمكن أن يكون لدينا لبنان بلا فيروز»!

> "عندما يبدأ الغرب بتقديم تراثنا على مسارحه عندها يمكن أن أفعل المِثل"

هذا ما ألتزمه

وعمّا إذا كانت ترى نفسها فنانة ملتزمة، تقول: «أنا فنانة ملتزمة لأنني أبحث عن نوعية الأعمال ومستواها ومعانيها وجمالياتها. انا التزمتُ العمل الجميل والجدّي والراقي الذي يرضيني ويحاكي أحاسيسي».

وعن وضع الأغنية اللبنانية اليوم تقول: «أستمع إلى الجميع وهناك أعمال جميلة ولكننا اليوم أمام لبس شخصية أخرى، فالحال أننا نأخذ الكلمة اللبنانية أو أحياناً ما يسمّى باللهجة البيضاء ثم نأتي باللحن اليوناني أو التركي أو أي لحن مستورد. الأعمال الجميلة قليلة نسبة لكمية الأعمال المستنسخة، وأغلب ما يتم تقديمه مأخوذ من تراث الآخرين».

ألحان مستوردة ودائرة مفرغة

وعن الأكذوبة التي يعيشها الفن العربي اليوم تقول: «في الاعمال الفنية العربية شركات الانتاج تنتهج سياسات معيّنة وهي القادرة على التأثير بأموالها. وأكبر أكذوبة يعيشها الفن العربي هو الإعلام الذي يكرّر ويكرّر النوع نفسه من الأغنيات، ما يسهل صبغ عقول الناس ويجعل الشركات الكبرى قادرة على فرض رغباتها. ندور في حلقة مفرغة بين الإذاعة والتلفزيون

سيرة ذاتية حافلة

جدير بالذكر أنّ غادة شبير حازت شهادة دكتوراه في العلوم الموسيقيّة بدرجة امتياز، ودبلوماً في الغناء العربي من جامعة الروح القدس - الكسليك. هي حالياً أستاذة لمادة الغناء الشرقي والنّظريات الشّرقية وتاريخ الموسيقى العربيّة في جامعة الروح القدس الكسليك، ومديرة الفرقة العربيّة فيها، ومنسّقة الدروس الشرقيّة في كليّة الموسيقى التابعة للجامعة.

دَرَّسَت الغناء العربي والتّرتيل السّرياني في المعهد الوطني العالي للموسيقى - الكونسرفتوار بين عامي 1997 و2007. كذلك درّست مادة الغناء الشرقي في الجامعة اللبنانيّة والكونسرفاتوار الوطني ودار المعلمين. حازت عدّة جوائز، منها جائزة الأغنية العربية في مصر عام ١٩٩٧، كما نالت جائزتين عالميتين لأفضل أداء وأفضل عمل (World Music Award) عن مدمج (CD) «موشّحات» من هيئة الإذاعة البريطانية BBC لسنة ٢٠٠٧ عن منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا.

صدر لها لاحقاً مدمجات «قوالب»، «أندلسيّة»، «القصيدة» وتسجيلات دينيّة مترجمة الى لغاتٍ ثلاث «Syriac Chants», «Passion» and «Chants Syriaques; Noel».

جالت غادة شبير في العديد من البلدان وقدّمت العديد من الحفلات، وشاركت في مؤتمرات موسيقيّة عالميّة وقدّمت محاضرات عدّة، كما شاركت في مهرجانات عالميّة في أوروبا ومعظم دول العالم.